بسم الله الرحمن الرحيم

التعنت...آفةٌ عقلية

٣ / ١٢ / ١٤٤٦

الحمد لله... أما بعد:

أبناء العمومة يقتلون عمَّهم!

عُدَّت هذه القصة في عداد القصص الغرائب، والحكايات العجائب، والتي تدل على وَهن العقول، وقساوة القلوب.

كان رجل غنيًا كثيرَ المال، ولم يكن له ولد، وكان له أبناءُ عمٍّ، فيهم شجع وطمع، وهم ورثة هذا الرجل الغني، وفي يوم تسلط فيه الشيطان، واكتمل فيه الغَي، وغاب عنه التعقل، قاموا على عمِّهم الغني الذي ليس له ولد فقتلوه؛ ليرثوا ماله، وألقوا جثته في قارعة الطريق، فاختصموا في قتله أمام الناس: مَن قتله؟ مَن أَرْدَى عمَّنا؟ يُظهرون براءتهم بهذا الصنيع، فقال رجل: أتختصمون فيمن قتله وفيكم نبي؟ فمن هو نبيهم؟ كان نبيهم موسى-عليه السلام-، وكان أبناء العمومة هم من بني إسرائيل، والذين

قال الله عنهم في هذه القصة العجيبة: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾.

حكم النبي في قضية القتل!

فأمرهم موسى أن يذبحوا بقرة! فتعجب القوم، وقالوا: نسألك عن القتيل وعمن قتله، وتقول: اذبحوا بقرة! أتهزأ بنا؟ فقال: أعوذ بالله، أقول لكم: "إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ "، وتقولون: "أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗا "؛ لأنه لا يليق الهزؤ أن يفعله العقلاء الأفاضل؛ لأن الهُزُؤ مِزاح مع احتقار واستخفاف بالممزوح؛ لذا قال لهم موسى: ﴿ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾.

تعنت ومماطلة تسبب جَهدًا وبلاء!

فذهبوا إلى السوق فوقعوا في حيرة، أي البقر أراد الله؟ فرجعوا إلى موسى: ﴿ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ﴾، قالوا هذا مع أن الله قال: (بَقَرَةً)، ولم يحددها بعمر، أو لون، أو وصف، قال ابن عباس: "فلو أخذوا أيَّ بقرة فذبحوها

لأجزأت عنهم، ولكنهم شددوا وتعنتوا موسى فشدد الله عليهم"، وسبب ذلك أنهم أساؤوا الظن بنبيهم، فقالوا: (أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا)، فكان عاقبةُ سوءِ ظنِّهم ما قذف الله في قلوبهم من التعنت والتشدد، وقد أمر الله أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بترك التنطع في المسائل فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾، والمنهي عنه أسئلةُ التكلف والسؤالُ عما لا يَعني، والأسئلةُ في العويص من المسائل التي لا تنفع الحال، وإنما تفتح باب النزاع، وتُثير مكنونَ الشقاق، ولا يكون فيه إلا التحريج على الأمة، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إن الله فرضَ عليكم الحجَّ فحُجُّوا"، فقال رجل: أكُلَّ عام يا رسول الله؟ فسكتَ حتى قالها ثلاثًا. فقال: "لو قلتُ: نعَم. لوَجَبَتْ ولما استطعتُم"، ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ذَروني ما تركتُكم، فإنما هلك من كان قبلَكم بكثرةِ سؤالِهم واختلافِهم على أنبيائِهم، فإذا أمرْتُكم بشيءٍ فأْتُوا منه ما استطعتُم، وإذا

نهيتُكم عن شيءٍ فدَعُوه"[1].

وإذا أراد المسلم أن يسأل فإنما يسأل فيما لا يترتب عليه شيء مما سبق، وإنما يسأل سؤال الراغب المتواضع، سؤال الصادق المتعلم، كما قال تعالى آمرًا: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ النحل: ٤٣.

سؤالات المتنطعين!

فكانت أولُ سؤالاتِ المتنطعين: ﴿ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ﴾، ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ﴾، (لَّا فَارِضٞ)أي: ليست طاعنة في السن، (وَلَا بِكۡرٌ) أي: ليست صغيرة. وإنما (عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَ)، وهذه السِّنُّ أقوى ما تكون البقر والدواب، وأحسنُ ما تكون لحمًا وعظمًا، فكان ذلك أولَّ التشديد عليهم؛ ولذا قال لهم موسى:﴿ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ﴾، أي: بادروا بتدارك حاجتكم، وكفوا عن المماطلة والملاججة، حتى

---

(١) متفق عليه.

تصلوا إلى العلم بقاتل قتيلكم.

ولو شاء الله لقال: (اذبحوا بقرة عوانًا) لكنه فّصل بأنها لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك "تعريضًا بغباوتهم واحتياجهم إلى تكثير التوصيف حتى لا يَتْرُكَ لهم مجالًا لإعادة السؤال"[1].

لونٌ أندرُ من الكبريت الأحمر!

ولكن الأمر لم يزدد إلا وبالًا، والعقولَ لم تطفح إلا حيرة وترددًا، ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ﴾، والسؤال عن اللون دليل حماقةِ عقولِهم، ويُبُوسةِ تفكيرهم، إذ ما علاقة اللون بقربانٍ يتقبله الله، ولم تجرِ عادةُ الناس أن يهتموا بمثل ذلك، ولا يكون لهم ذلك على بال، فمثل هذه "الأوصاف طَرْديَّة لا أثر لها في حكمة الأمر بالذبح"[2].

فلما شددوا على أنفسهم باختيار اللون شدد الله عليهم

---

(١) التحرير والتنوير (١/٥٥١).

(٢) المرجع السابق (١/٥٥٢).

بلون أندر من الكبريت الأحمر، ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾، فاللون ليس بمشهور على الأبقار، ولو قال صفراء وسكت لكان من الصعوبة بمكان، فكيف وهو يقول: صفراء فاقع لونها، والأصفر الفاقع، كما تقول: الأبيض الناصع، والأخضر الناضر، والأسود الحالك، فالفاقع: شديد الصفرة، وحتى لا يَظُنّ الظان أن شدة صفرتِها عيبٌ اعتراها لمرض جلدي، أو طفح جسمي، قال لهم: ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾، فلجدها نقيٌّ، ولونها بَهِيٌّ، "إذا نظرْتَ إليها يُخيَّل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها"[1].

جهلة ثالثة!

ثم إنهم أتوا بجهْلةٍ ثالثة، وسطوة آخِرة، فزادوا نبيهم موسى-عليه السلام- أذى وتعنتًا، فزادهم الله عقوبة وتشديدًا، ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ

---

(١) أخرجه ابن جرير عنه وهب بن منبه.

﴿ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ﴾، فتشابه البقرُ عليهم، والتبس أمرُهم بينهم، وغدوا في أمر مريج، جناه عليهم قِلةُ فِقههم، وتمادي عجزِهم.

﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾، وهذه صفة لا تكون في بقر، ولم يُعهَد أن تكون في إبل ولا غنم، فهي بقرة فارهة، لم تُحمَل على عمل، ولم يُشقَّ عليها في سقاية، (لَّا ذَلُولٞ) أي: بقرةٌ غيرُ مُذلَّلة للإنسان، بل هي عنيدة صعبة، غيرُ مِطواعة للعمل، ومن آثار صعوبتها: أنها لا تثير الأرض ولا تقلِبُها، ولا تسقي الحرث ولا تكون في السواني، بل هي بقرة وحشية، لا تأنس بالإنسان ولا بعمل الإنسان.

فهي بقرة تناسب ما عليه الإسرائيليون من الصعوبة في الطاعة، وعدم الليونة في اتباع الأمر، فعاقبهم الله من جنس طبعهم وطباعهم، بل وزادهم الله فوق ذلك فقال: ﴿ مُسَلَّمَةٞ ﴾ أي: مُسَلَّمة من العيوب، كاملة من جميع النواحي، لا عمياء ولا عرجاء ولا عجفاء ولا هزيلة لا

تُنقِي، بل زادهم فوق ذلك وقال لهم: ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي: ليس فيها علامة، وليس فيها نقطةُ تخالف صفارها الفاقع، وهذا عسير جدًا جدًا، فقد فطر الله البهائم ملونةَ الفم، أو القوائم، أو الآذان، أو البطون، فالغراب أبقع، أي: فيه لونان، والفرس أبلق، أي: فيه لونان، والثور أشيه، أي: فيه لونان، لكن هذه البقرة يقول الله عنها: (لَّا شِيَةَ فِيهَا).

فاتقوا الله أيها المؤمنون، وارجوا ثوابه، وأديموا شكر نعمه، وأكثروا من الاستغفار.

الخطبة الثانية:

بقرة تُشتَرى بوزنها ذهبًا!

﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾، فسبحان الله! الآن فقط جاء بالحق! الآن فقط تبيَّن لهم أيَّ البقر أراد! ولا شك أن أمرَهم هذا هراء، وحالَهم الذي هم فيه حالُ جهل وسفه.

ثم إنهم لما جمعوا ما استثقل من صفاتها، وما صعُب من شكلها وأوصافها، أخذوا يبحثون الأرض، ويقلبون المزارع، فما وجدوها إلا بملء جلدها ذهبًا، فاشتروها

بأغلى الأثمان، وأرفع الأسعار، ثم ذبحوها فعمدوا إلى جلد البقرة فملؤوه دنانير، ثم دفعوا الدنانير إلى مالكها، فحصل لهم بسبب تشددهم من النعوت لهذه البقرة ما لم توجد إلا في بقرة واحدة، فاضطروا إلى شراء بقرة لا يُعلم على صفتها غيرُها، بقرة فتية قوية، ذات لون فاقعٍ الصفرة، ليس فيها سواد ولا بياض، ولولا قولهم: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ لما وجدوها، وأيم الله لو أنهم لم يستثنوا لما بينت لهم آخِرَ الأبد.

قال ابن كثير: "لم يجدوا البقرة التي نُعتِت لهم إلا عند عجوز عندها يتامى، وهي القِيِّمة عليهم، فلما علمت أنهم لا يزكو لهم غيرُ هذه البقرة، أضعفت عليهم الثمن. فأتوا موسى فأخبروه أنهم لم يجدوا هذا النعت إلا عند فلانة، وأنها سألتهم أضعاف ثمنها. فقال لهم موسى: إن الله قد كان خفف عليكم فشددتم على أنفسكم فأعطُوها رضاها وحُكمَها. فَفَعَلوا، واشتروها"[1].

---

(١) تفسيره (١/٢٩٥).

﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾، وهذا ذم لهم، فما كادوا أن يذبحوها إلا بعد الجَهد والكَدّ[1].

انكشاف السر وظهور المخبأ!

فلما أتوا بالبقرة، قالوا يا موسى: سألناك من قاتلُ قتيلِنا فأمرتنا أن نذبح بقرة! وها قد ذبحناها، فما علاقة البقرة بقتيلنا الذي نطالب بمعرفة قاتله؟!

هنا يأتي سر هذا الأمر، والحكمة من تِلْكُم البقرة، فقد أخبر الله عن القتلة الذين قتلوا عمهم، فقال: ﴿ وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾، فبهذه البقرة سوف ينكشف سرُّ القاتل، ويظهرُ للناس المكتوم من الأمر، ﴿ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ﴾، أمرهم الله أن يأخذوا من عظام البقرة، ويضربوا بالعظام جسدَ الميتِ القتيل، فأمرهم موسى أن يأخذوا عظمًا منها فيضربوا به القتيل. ففعلوا، فأرجع الله إلى القتيل روحَه، فقام الميت

---

(١) ضعف ابن كثير أنهم ما كادوا يفعلون الذبح خوفًا من الفضيحة؛ فيُكشَفوا بأنهم هم قتلة القتيل (١/٣٠١).

وقال: قتلني فلان وفلان. ثم عاد ميتًا كما كان. فأُخِذ قاتلُوه، وهم الذين أتوا موسى شاكين إليه في أول القصة، فقتلهم الله على أسوأ أعمالهم.

ملامح من واقع حياة!

إن هذه القصة تعطي صورة من صور الجدل العقيم، وتعكس طبعًا من طباع الإنسان وهو لئيم، عندما يُعميه حبُّ الدنيا، فيقتلَ بدم بارد، ويُزهِق بنفس طامعة جشعة، كما تخبرك القصة عن شيء من أخلاق اليهود، وما هم عليه من المراوغة والمكر، والتشدد والتعنت، فمِن تشددهم "أنهم كانوا إذا أصاب جلدَ أحدِهم بولٌ قرَّضه بالمقاريض"[1]، لكنَّ تشدُّدَهم عليهم، وكيدَهم في كيد الله لا ينفعهم، بل يكشف عوارهم، ويفضح خبيئتهم.

عاصم بن عبدالله بن محمد آل حمد

---

(١) رواه مسلم.